المقتطف

الجزء العاشر من السنة العشرين

١ اكتوبر (تشرين اول) سنة ١٨٩٦ الموافق ٢٣ ربيع الثاني سنة ١٣١٤

اللؤلؤ ومغاوصهُ

اللؤلؤ والدرّ والجوهر اسماء لمسمًّى واحد معروف يستخرج من بعض انواع الصدف . فان الحيوان الذي في هذا الصدف رخو القوام شديد الحس فيبطّن صدفتهُ بغشاء لامع حتى لايحتكّ بها جسمهُ وهذا الغشاء مادة ترابيَّة اكثرها ممَّا يسمَّى عند الكيماويين كربونات الكلس يفرزها الحيوان ممَّا يدخل جوفهُ من الماء والطعام . فاذا عرض ان دخل صدفتهُ جسم غريب حبَّةُ رمل او حيوان مائي صغير او قطعة من النبات الرملي او نحو ذلك ممَّا يقلق راحتهُ افرز ذلك المفرز وغلَّف الجسم الغريب بهِ لكي ينجو من شرهِ فيجتمع المفرز عليهِ طبقةً فوق طبقةٍ حتى يصير كرة ملساء متألقة . وهذا هو اللؤلؤ او الدر او الجوهر على اختلاف اسمائهِ . ولذلك فالدرر الغوالي الَّتي يباهي بها الغواني مادَّة ترابيَّة يفرزها حيوان صغير ليدرأ بها ضرًّا او ليدفع المسَّ

والجواهر على انواعها تُقطَع وتُصقَل لكي يظهر جمالها الَّا اللآلئ فانها تخرج من يد الطبيعة ملساء متألقة لاتحتاج الى قطع ولا الى صقل فلذلك ولأنها توجد في حيوان يصاد و يؤكل عثر الناس عليها من قديم الزمان وتهافت الحسان على التحلي بها منذ آلاف من الاعوام فتجد في دار التحف المصريَّة بالجيزة لآلئ المصريين القدماء مع خرز الذهب والعقيق مرَّت عليها القرون الكثيرة وبقيت شاهدًا على ان حبَّ التزيُّن والتحلي غريزة في نفس الانسان وانهُ كان في تلك الازمان يغوص البحر في طلب اللآلئ كما يغوصها الآن

وكان القدماء يباهون باللآلئ ويفضلونها على غيرها من الجواهر . قال التيفاشي[1] في كتاب

(١) هو الامام شهاب الدين احمد بن يوسف التيفاشي الذي نشأ في اواسط القرن السابع للهجرة والثالث عشر للميلاد

الاحجار " الجوهر اسم عام لجميع الاحجار المعدنيَّة ثم خُصَّ بهِ هٰذَا بعينهِ لفضلهِ عليها ". وروى المؤرخون انهُ لما تزوج الاسكندر المكدوني واتباعهُ الثمانون بالنساء الفارسيات كانت للآلئ بحر فارس زينة اولئك الحسان . وظلَّ الرومانيون يرسلون القوافل عاماً بعد عام الى بلاد الهند في طلب اللآلئ الى ان تقلَّص ظلُّ مجدهم . ويقال ان يوليوس قيصر غزا بريطانيا ليغنم ما فيها من اللآلئ فلما عاد منها اهدى الى الزهرة قلادة من الدرر البريطانيَّة

وذكر المؤرخون ان تاج خان التتر الذي تغلَّب عليهِ الفرس في القرن الخامس للمسيح كان مرصَّعاً بالوف من اللآلئ . وتاج كسرى كان عليهِ اللؤلؤُ والياقوت صفوفاً صفوفاً . وأُخفي هٰذَا التاج وبقي الف سنة الى ان عثر عليهِ الشاه عبَّاس في جبال لورستان[٢] . ولما تغلب العرب على المدائن في اوائل الفتح الاسلامي غنموا من اسلاب كسرى بساطاً اسمهُ التطيف " طولهُ ستون ذراعاً وعرضهُ ستون ذراعاً كانت الاكاسرة تعدُّهُ للشتاء اذا ذهبت الرياحين شربوا عليهِ كأنهم في رياض فيهِ طرق كالصور وفيهِ فصوص كالانهار ارضها مذهبة وخلال ذلك فصوص من الدر في حافاتهِ كالارض المزروعة والارض المجللة بالنبات في الربيع والورق من الحرير مع قضبان الذهب وزهرهُ الذهب والفضة وثمرهُ الجوهر واشباه ذلك "[٣] . وقرطا مارية اللذان يُضرَب بهما المثل درَّتان كبيرتان كبيض الحمام

وكثر اللؤلؤُ عند العرب لكثرة ما غنموا من الفرس ولان مغاوصهُ كانت لهم في ساحل العراق وفارس وجدَّة والقُصَير . ويقال ان الرشيد لما تزوج بزبيدة بنت جعفر امر ان تجلى في درع من الدر حتى لم تقدر على المشي لكثرة ما عليها من الجوهر . وكان الغواني في ايامهِ يعصبن رؤوسهنَّ بعصائب مغطاة باللؤلؤ . ولم يزل العرب والترك ومَن والاهم من امم المشرق يغالون باللآلئ ويكثرون منها حتى يومنا هٰذَا . ولم يكن التحلي بها قاصراً على النساء بل ان الرجال كانوا يتحلون بها ايضاً فقد قيل ان شاه جهان ملك الهند صاحب العرش المشهور[٤] كان يتقلَّد بقلائد الدر الثمين الذي ليس مثلهُ في خزائن الملوك

ولم تعرف القدماء حقيقة اللؤلؤ مع رغبتهم في تطلُّبهِ والمباهاة بهِ فقال قدماء الهنود

---

(٢) لعلهُ غير التاج الذي غنمهُ العرب وقتما فتحوا المدائن وارسلوهُ الى الخليفة عمر

(٣) ذكر ذلك ابن الاثير وابن خلدون وغيرهما من المؤرخين

(٤) هو الخامس من ملوك المغول في دلهي ببلاد الهند نشأ في اوائل قرن السابع عشر والعرش المشار اليهِ بلغ ثمنهُ سبعة ملايين من الجنيهات وكان مرصعاً بالجواهر فيظهر ملوكاً كطاووس ذنب الطاووس

انهُ دموع الملائكة تسقط من السماء في اصداف البحر. وقال بلينيوس (٥) "ان اللآلئ تكون كبيرة او صغيرة جميلة او قبيحة حسب كيفية الندى الذي يقع في الصدف وكيفيتهِ فاذا كان الندى نقيًّا صافيًا كانت اللآلئ جميلة متألقة. والغيم يتلف لون اللؤلؤ والبرق يوقف نموَّهُ والرعد يجعل حيوان اللؤلؤ ينفث لؤلؤهُ فارغًا كقواقيع الماء". ولعلَّ هذا المذهب قديم قال بهِ الهنود قبل الرومانيين

ونقل القزويني عن ارسطو "ان البحر المسمَّى اوقيانوس يضطرب في كل فصل ربيع من هبوب الريح فيأتيهِ الصدف في هذا الوقت فتأتي الريح برشاشات يلتقمها الصدف ثم يرجع الى قعر البحر فتصير مركبةً مع الماء واللحم في جوف الصدف فربما وقع في بطنها قطرة كبيرة فتنعقد درَّة كبيرة وربما تقع رشاشات فتنعقد اجزاء صغارًا كما ترى في اكثر الاصداف. ثم ان الصدفة اذا وقعت في فمها القطرة تخرج من قعر الماء الى ظاهرهِ عند هبوب الشمال وطلوع الشمس وغروبها ولا تخرج في وسط النهار فان شدَّة الحر وقوتهُ تهيج البحر فيفسد الدر وتنتج فاها ليقع الشمال على الدر فينعقد من اثر الشمال وحرارة الشمس كما ينعقد الجنين في الرحم من حرارتها. ثم از جوف الصدف ان خلا من الماء المر يكون الدرُّ في غاية الصفاء والجلاء وحسن الهيئة وان خالط الصدف شيء من الماء المر يكون الدرُّ اصفر اللون او كدرًا غير مهندم وكذلك ان استقبل الهواء في غير هذين الوقتين كانت الدرَّة كدرة. واذا كانت فيها دودة او كانت مجوفة غير مصمتة كان سببها استقبال الصدف في الهواء الرديء وهو الليل وانصاف النهار. ثم ان الصدف اذا تجسَّدت الدرة في جوفهِ تجسُّدًا مستويًا هبط الى اصل البحر حتى تتشعب منهُ العروق ويصير نباتًا بعد ما كان حيوانًا". ولا يخفى ما في ذلك من الاوهام

وكتاب ارسطو في خواص الاحجار الذي استشهد بهِ القزويني وغيرهُ من كتَّاب العرب لا يوجد الآن في اليونانيَّة ولكن لهُ ترجمة بالعربيَّة للوقا بن اسرافيون. وذكر حجي خلفه (٦) ترجمة اخرى لابي الريحان محمد بن محمد البيروني

ومغاوص القدماء الَّتي كانت في خليج فارس وسيلان لم تزل على عهدها مع انهُ مرَّ عليها اكثر من الفي سنة اما مغاوص جدة والقُصَير فاهملت. وكُشفت مغاوص اخرى شرقي

(٥) عالم طبيعي روماني ولد سنة ٢٣ للميلاد ولهُ كتاب كبير في التاريخ الطبيعي اي في علم النبات والمعادن والجماد والجغرافيا والاحداث المجوبة والهيئة واضاف اليهِ ابحاثًا مطولة عن الصناعات والسياسات والظاهر ان العرب ترجموا فصولاً كثيرة من هذا الكتاب

(٦) حجي خلفه او الحاج خليفه هو مصطفى بن عبدالله الكاتب الحنفي المشهور صاحب كتاب كشف الظنون ولد في القسطنطينية في اوائل القرن الحادي عشر للهجرة

غينيا الجديدة وشمالي استراليا وبقرب بناما وكليفورنيا. ويقال ان قصر متزوما ملك المكسيك الذي خربهُ الاسبانيون لما دخلوا بلادهُ كان مرصعاً باللؤلؤ والزمرد. وذلك يدل على كثرة اللؤلؤ في شواطىء بلاد المكسيك

ويوجد اللؤلؤ في اصداف بعض الانهار ايضاً ولاسيما في الصين وروميا والمانيا وكان كثيراً في انهار بلاد الانكليز

والاصداف البحرية ٱلَّتي يتولد فيها اللؤلؤ ثلاثة اشكال وكلها موجود في خليج فارس والناس هناك معتادون الغوص عليها ابًا عن جدّ لكن العادة لم تُذهب مخاطر الغوص فهم عرضة للطرش ولآفات القلب والرئتين والفالج فضلاً عن ان كلاب البحر تفترسهم احياناً

نقل صاحب حضارة الاسلام عن القرماني ان "الغواصين كانوا يثقبون آذانهم للنفس ويجعلون القطن في انوفهم ويصطنعون وجوداً من الدبل (صدف السلاحف) ويدهنون ابدانهم بالسواد خوفاً من بلع دواب البحر اياهم ويصيحون عند الغوص مثل الكلاب لتنفيرها عنهم فاذا باغوا القعر عصروا دهناً يضيءُ منهُ البحر ليروا الاصداف ٱلَّتي يتولد فيها اللؤلؤ وتكون مدفونة في ارض البحر رملاً كان او طيناً"

وقال ابن بطوطه[٧] في رحلتهِ المشهورة "ومغاص الجوهر فيما بين سيراف والبحرين في جون راكد مثل الوادي العظيم فاذا كان شهر ابريل وشهر مايه تأتي اليهِ القوارب الكثيرة فيها الغوّاصون وتجار فارس والبحرين والقطيف ويجعل الغواص على وجههِ مهما اراد ان يغوص شيئاً يكسوهُ من عظم الفيل وهي السلحفاة ويصنع من هٰذا العظم ايضاً شكلاً شبه المقراض يشدهُ على انفهِ ثم يربط حبلاً في وسطهِ ويغوص. ويتفاوتون في الصبر في الماء فمنهم من يصبر الساعة والساعتين فما دون ذلك فاذا وصل إلى قعر البحر يجد الصدف هنالك فيما بين الاحجار الصغار مثبتاً في الرمل فيقتلعهُ بيدهِ او يقطعهُ بحديدة عندهُ معدة لذلك ويجعلها في مخلاة جلد منوطة بعنقهِ فاذا ضاق نفسهُ حرّك الحبل فيحس بهِ الرجل المملك للحبل على الساحل فيرفعهُ الى القارب فتؤخذ منهُ المخلاة ويفتح الصدف فيوجد في اجوافها قطع لحم تقطع بحديدة فاذا باشرت الهواء جمدت فصارت جواهر فيجمع جميعها من صغير وكبير فيأخذ السلطان خمسهُ والباقي يشتريهِ التجار الحاضرون بتلك القوارب واكثرهم يكون لهُ الدين على الغواصين فيأخذ الجوهر في دينهِ او ما وجب لهُ"

---

(٧) هو الشيخ الفقيه ابو عبدالله شمس الدين بن ابرهيم اللواتي الطنجي الرحالة المشهور معروف بابن بطوطه ولد بطنجة سنة ٧٠٣ للهجرة

ولم يزل الغواصون في خليج فارس يسدون آذانهم بالقطن ويشدون انوفهم بقراض من عظم السلاحف الى يومنا هذا ولكنهم لا يستطيعون ان يقيموا في الماء الاَّ خمسين ثانية او ستين ولذلك فما ذكرهُ ابن بطوطه من ان الغواصين يصبرون الساعة والساعتين تحت الماء خطأ منهُ او من نسَّاخ كتابهِ ولعلهُ قال الدقيقة والدقيقتين والاَّ فهو ناقل غير مثبت لا مشاهد كما يدعي

وقد استنبط الاوربيون اسلوباً يسهل بهِ الغوص وتطول مدتهُ وهو ثوب من الصمغ الهندي يشمل الجسم كلهُ ما عدا اليدين والرأس وخوذة من النحاس تحيط بالرأس وتتصل بالثوب فيكون الانسان في غلالة لا يدخلها الماء ولا الهواء . وفي الخوذة كوَّتان كبيرتان من الزجاج ليرى بهما وانبوب من الصمغ الهندي يمتد الى آلة هوائيَّة في القارب الذي ينزل منهُ لدفع الهواء النقي الى الغوَّاص واما الهواء الفاسد الذي تنفَّسهُ فيخرج من مصراع في جانب الخوذة . ويلبس الغوَّاص احذية مثقلة بالرصاص ويضع على صدرهِ وظهرهِ صفيحتين من الرصاص ليسهل غوصهُ في الماء ويكون معهُ حبل متصل بالقارب الذي نزل منهُ اذا جذبهُ مرةً فذلك اشارة الى انهُ يطلب ان يُرفع من الماء واذا جذبهُ مرتين فذلك اشارة الى انهُ يحتاج الى الهواء وهلمَّ جرًّا ويسمَّى حبل الحياة

والغوَّاصون الذين يلبسون ثوب الغوص هذا اكثرهم من الالمانيين والاسوجيين وبعضهم من الانكليز والاميركيين ويستطيع الواحد منهم ان يقيم في الماء عشر دقائق على عمق مئة قدم وساعتين على عمق ثلاثين قدماً . ومخاطر الغوص لا تتقى بهذا الثوب نعم ان كلاب البحر لا تفترس لابسهُ كما تفترس الغواصين العراة لكن لابسهُ معرض لمخاطر اخرى هم في مأمن منها فان انبوب الهواء قد ينشقُّ فيموت الغوَّاص اختناقاً والقارب قد يحملهُ التيار فيسرع الغوَّاص معهُ ليبقى تحتهُ فيعلق انبوب الهواء او حبل الحياة بصخر او نحوهِ ويتعذَّر على الغواص النجاة فيرد حتفهُ في قاع البحر

ويكون مع الغواص مخلاة يملأُها بالصدف ويصعد بها ويفرغها في القارب فاذا امتلأ القارب منهُ فيكون فيهِ من عشرين الف صدفة الى ثلاثين الفاً فيؤتى بهِ الى الشاطئ . ويطرح الصدف عليهِ حتى يموت ويتن . وقد استخرج خمسون غواصاً في سيلان احد عشر مليون صدفة في ٣٢ يوماً باعوا كل الف صدفة منها بمائة وعشرين غرشاً فكان نصيبهم منها ٣٢٠٠ جنيه ونصيب الحكومة ١٠٠٠٠ جنيه . ثم تغسل الاصداف وتجمع منها اللآلئ المنفصلة لانها اغلى ثمناً من المتصلة بالصدف وهذهِ تنزع من الصدف وتستعمل للترصيع فقط لانها غير تامة

الاستدارة واما تلك المستديرة فتثقب وتنظم قلائد

وافضل اللآلىء ما وجد في الغلاف المبطن للصدفة بقرب شفتيها او في لحم الحيوان عند مفصل صدفتهِ . واجودها الكروي الابيض الخالي من الشوائب او كما قال التيفاشي " افضل الدر عندهم الفريدة وهي المستديرة الشكل التي لا تضريس فيها وتسمَّى عند عامة الجوهريين المدحرجة التي تجمع الاوصاف الخمسة النقاء والتفافية وهي المائية وكبر الجرم والدحرجة وضيق الثقب اذا كان مثقوباً ويتلو المستديرة الكمثريَّة الشكل ثم البيضيَّة" . واذا كان وزن اللؤلؤة ٢٥ قمحة سميت فريدة وما زاد عن ذلك فنادر جدًّا

ومن اللآلىء المشهورة فريدة وجدت بين جواهر ملك فرنسا سنة ١٧٩١ بيعت بثمانية آلاف جنيه وفريدتان اخريان كمثريتا الشكل ثقلها ٢١٤ قمحة ثمنتا باثني عشر الف جنيه . ويقال ان عند شاه ايران فريدة تساوي ستين الف جنيه وعند امام مسكت فريدة دُفع لهُ فيها ثلاثون الف جنيه فلم يبعها . ولعلَّ اكبر الدرر كلها درة المستر برمنغرد هوب وهي في دار التحف بسوث كنسنتون بلندرا وزنها ١٨٠٠ قمحة . ويقال ان الدرَّة التي اذابتها كليوباترا كانت تساوي ثمانين الف جنيه . وان الرومانيين قطعوا درة مثلها نصفين وصاغوا منهما قرطين للزهرة

واللون الابيض هو المستحبُّ في اللؤلؤ غالبًا لكن الصينيين يفضلون اللون الاصفر وكان اهالي باريس مرةً يفضلون اللون القرنفلي والآن يعدُّ اللؤلؤ الاسود اثمن اللآلىء لندرتهِ

وغني عن البيان ان اللؤلؤ مكوَّن طبيعي لا يدَ للصناعة فيهِ غير ما يجري الآن من التحكُّم في المغاوص بحيث لا يغاص على لؤلئها الاَّ في اوقات معلومة وسنين محدودة فيُترَك اللؤلؤ زمانًا كافيًا لنموهِ لكن ذلك لم يقنع الاميركيين الذين ابوا الاَّ ان يتفننوا في كل صناعة فانهم قد اخذوا يربُّون صدف اللؤلؤ في بحارهم وبحيراتهم ويدخلون في جسمهِ مادةً يتكون اللؤلؤ حولها ويتركونهُ زمانًا كافيًا ليكبر فيها ويصير من الدرر الغوالي . والظاهر ان الصينيين عرفوا ذلك وسبقوا اليهِ منذ عهد قديم جدًّا فانهم ينتزعون الصدف من الماء في شهر مايو (ايار) ويفتحونهُ ويدخلون فيهِ اجسامًا صغيرة من الطين مصنوعة في شكل اصنامهم ثم يردونهُ الى الماء ويتركونهُ فيهِ نصف سنة فترسب عليها طبقة لؤلؤية واللؤلؤ الذي يرى احيانًا في شكل التنانين يتكوَّن على هذه الصورة . واذا نجح الاميركيون في توليد اللؤلؤ الكبير نجاحهم في توليد الصغير هبطت اثمان الدرر الغوالي وقلَّت منافسة الحسان فيها